المحور: المؤسسات الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني.

المحاضرة التاسعة- المســـــــاجد:

أولا-تعريف المسجد: المسجد شرعا هو كل موضع من الأرض لقوله صلى الله عليه وسلم‹‹ جعلت لي الأرض مسجدا ››[1]، وهو المكان الخاص الذي يؤدي فيه المسلمون الصلوات المفروضة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الفروض الدينية، ومختلف العلوم الأخرى المتعلقة بحياة المسلمين، والتعريف بشؤون الناس ومعالجة بعض المشاكل والقضايا المتعلقة بالحياة اليومية للمجتمع[2].

والمسجد نوعان واحد لا تقام فيه صلاة المجتمع، بينما تجرى في الآخر وهو المسجد الجامع، أو الجامع الكبير أو مسجد الخطبة، ويتضح من خلال هذا القول أن الجامع هو المسجد الذي تؤدى فيه صلاة الجماعة يوم الجمعة، ولذا عرف بالجامع، كما يمكن اعتبار لفظ الجامع نعت للمسجد، وإنما نعت بذلك، لأنه علامة الاجتماع[3].

والمساجد كانت تحدد أنواعها بناء على مؤسسها، فهناك نوع قام ببنائه الحكام كالخلفاء والأمراء والولاة والملوك، ونوع بناه الأثرياء، ونوع قامت ببنائه الهيئات والجمعيات الخيرية[4].

---

[1] خيرة بن بلة ‹‹ **المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني** ›› رسالة دكتوراه، معهد الآثار، جامعة الجزائر (الجزائر)، 2007-2008م، ص.32.

[2] مريوش، **مرجع سابق**، ص.12.

[3] بن بلة، **مرجع سابق**، ص ص.34-35.

[4] مريوش، **مرجع سابق**، ص.12.

فالنوع الأول هو الذي قام بتأسيسه الحكام، ويعتبر ذلك في نظرهم جزءا من واجبهم الديني لخدمة المجتمع الإسلامي ومساعدته في تأدية شعائره الدينية، وكسب عطف الرعية، وربما للشهرة أيضا، ونجد هذا النوع من المساجد في الجزائر العاصمة، كالجامع الكبير والجامع الجديد بالعاصمة، وجامع الباي وصالح باي بقسنطينة، وجامع الباشا بوهران والجامع الكبير بتلمسان[1].

أما النوع الثاني من المساجد، فقام بتأسيسه الأثرياء من الناس وذلك ببنائه وصيانته، والوقف عليه بهدف التقرب إلى الله، واستمالة بعض الفئات الاجتماعية وشيوخ الدين، أو لكسب الشهرة، وهذا النوع من المساجد له أعداد كبيرة بالجزائر خلال الفترة العثمانية، منه مدينة بجاية التي اشتهرت بمساجدها القديمة والحديثة، وفي الفترة العثمانية بني الجامع الكبير بها، وفي عنابة بني مسجد سيدي أبي مروان ومسجد صالح باي، الذي عرف باسم المسجد الجديد[2].

والنوع الثالث من المساجد، قامت بتشييده المؤسسات الخيرية، وهو يعتبر بمثابة عمل مكمل لعمل الولاة والأغنياء والشيوخ، وأعدادها كبيرة لا تحصى ولا تعد بمختلف جهات الجزائر، ويلاحظ الكثير من الباحثين بأن هذه المساجد كانت في معظمها متواضعة، كما تحدث عن ذلك الورثلاني مقارنا بين المساجد التي بناها الأثرياء، والأخرى التي بنيت من طرف الأهالي، فهي مبنية بالحجر أو الجبس وصوامعها منخفضة، قوائمها ضخمة، فراشها بسيط من الحصير والزرابي، أما المساجد العثمانية، فتتميز بدقة البناء، غنية بفراشها وزخرفتها المتنوعة، وسعة وعلو صوامعها[3].

---

[1] مريوش، **مرجع سابق**، ص ص.12-13.

[2] نفسه، ص.13.

[3] نفسه، ص.14.

ثانيا-نماذج لأشهر المساجد في الجزائر العثمانية:

لقد اهتم العثمانيون ببناء المساجد وتأمين الموارد لحمايتها، والإنفاق على إقامة الشعائر الدينية فيها، ولم يهتموا بشيء آخر من العمران [1]، وتختلف الإحصاءات عن المساجد في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني، بل إن بعض المدن لا تكاد تذكر لها إحصاء، وتكتفي معظم المصادر بالحديث عن المدن الرئيسية، كما أن بعضها لا تذكر الجوامع (أو مساجد الخطبة)، ثم إن بعض الإحصاءات تختلط فيها المساجد القديمة المؤسسة قبل العهد العثماني والمؤسسة أثناءه [2]، وفيما يلي نماذج لأشهر المساجد التي كانت موجودة في الجزائر خلال العهد العثماني.

1- مساجد مدينة الجزائر وضواحيها: ذكر هايدو أنه كان يوجد في مدينة الجزائر في أواخر القرن العاشر الهجري(16م) حوالي مائة مسجد صغير أو كبير، لكل منها أئمة لإدارتها وإلقاء الخطب، وبنيت تلك المساجد من طرف العثمانيين، وكذا بعض سكان مدينة الجزائر الخيّرين من الميسورين، وذكر (دارفيو) في القرن الحادي عشر الهجري(17م) أن الأتراك كانوا قد أسسوا عددا كبيرا من المساجد جميلة جدا مع مآذن رائعة، وكانت هذه المساجد تتمتع بمداخيل أقل ما يقال عنها أنها جيدة، ومصدرها الأوقاف الموقوفة عليها، وكانت المساجد تحتوي على المحراب والمنبر والصومعة، وقناديل للإضاءة، والماء للوضوء، وأهم ما كان يلحق بالمساجد الكتاتيب، لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، وكانت المساجد تحتوي على موظفين منهم:

---

1 العيد مسعود **« حركة التعليم في الجزائر»** مجلة سيرتا، ع.3،1980، ص.64.

2 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص. 247.

الوكيل والخطيب والإمام، والمدرس والمؤذن [1]، ومن أهم مساجد الجزائر خلال الفترة العثمانية نذكر ما يلي:

أ- **الجامع الأعظم:** ويسمى بالجامع الكبير، وهو أعظم مسجد للعاصمة، حيث تقدر مساحته بحوالي 200م، ويعود تاريخ بناء هذا المسجد إلى العهد المرابطي، حيث أسسه يوسف بن تاشفين سنة 409هـ/1018م[2]، ولقد اكتسب هذا الجامع مكانة عظيمة في العهد العثماني، حيث امتاز بجماله ودقة بنائه، خاصة في قاعة الصلاة، وفي الترتيب البديع للأقواس المصقولة، وتعاقبها مع الأقواس الحادة، وكانت صومعته ترتفع على مستوى سطح الأرض إلى خمسة أمتار، وسقف المسجد يرتكز على 62 عمودا، وما كان يميزه أيضا وجود فوارة من المرمر (الرخام) أضافها العثمانيون في الساحة للوضوء[3].

وكان بالجامع الكبير بمدينة الجزائر (ساعة شمسية من رخام أبيض) على سطحه، كانت تعرف بها الأوقات الزمنية، حيث كان يعول عليها لضبط أوقات الصلاة الشرعية، إلى جانب وجود نبراس فخم جميل، كان موضوعا في مكان جميل بسطح المئذنة، والذي كان يستعمل للإعلام بدخول وقت الصلاة الليلية، ولا سيما في ليالي رمضان، حتى يراه مؤذني بقية مساجد العاصمة من أعلى الصوامع، فيسرعوا في الآذان[4].

---

1 أشرف صالح محمد سيد «**المراكز الثقافية في دار السلطان(الجزائر) أواخر العصر التركي**» أمارباك، المجلد الرابع، العدد السابع، الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، 2013، ص.64.

2 نور الدين، **صفحات**، ص ص.155-157.

3 عبد الرحمان الجيلالي «**الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا**»، مجلة الأصالة، ع.8، الجزائر، 1982، ص.126.

4 نفسه، ص.122.

وفي العهد العثماني، كان الجامع الكبير بالعاصمة مقرا للمفتي المالكي وللمجلس الشرعي(يوم الخميس) ، وكان هذا المجلس يضم المفتي المالكي والمفتي الحنفي، والقاضيين المالكي والحنفي وكبار العلماء والقضاة، كما كان يحضر الباشا أو نائبه عند الضرورة، ومن أبرز مهام هذا المجلس هو الفصل في القضايا الفقهية الشائكة، ولا سيما تلك التي يختلف فيها القضاة عند التطبيق والتنفيذ، أو تلك التي يحتاج فيها الباشا إلى فتوى العلماء[1].

وكان هذا المجلس أيضا مركزا للمناظرات بين العلماء في المسائل الخلافية العامة، ومجالا للتنازع والتنافس والتظاهر وكسب ود السلطة عند بعض العلماء، ومن أشهر العائلات التي تولت الفتوى المالكية في الجامع الكبير عائلة قدورة، ومن أبرز العائلات أيضا، ابن جعدون وابن الشاهد وابن الأمين وابن نيكرو[2].

كما كان للجامع الكبير موظفون كثيرون وأوقاف ضخمة تسيل لعاب العلماء المتنافسين، ومن أهم موظفيه بالإضافة إلى المفتي والوكيل، إمامان للصلوات الخمس، ومساعدان للمفتي وتسعة عشر أستاذا (مدرسا)، وثمانية عشر مؤذنا، وثمانية حزابين لقراءة القرآن الكريم، وثلاثة وكلاء أوقاف واحد منهم نائب للمفتي، الذي هو الوكيل الرئيسي، والثاني وكيل أوقاف المؤذنين، والثالث وكيل أوقاف الحزابين، وثمانية موظفين، وثلاثة موظفين للسهر على الإضاءة، أما الخطبة الجمعة والعيدين، فكان يتولاها المفتي نفسه، وهناك غير هؤلاء الموظفين، الذين لا يكاد يأتي عليهم الحصر[3].

---

1 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص258.

[2] نفسه، ص.258.

[3] نفسه، ص.259.

ب- الجامع الجديد: وتسمية هذه النسبة إلى الجامع الأعظم، لأن مدينة الجزائر كان لها قبل تشييد الجامع الجديد مساجد أخرى حنفية بناها الأتراك، وتقدر مساحة هذا المسجد بـ1372م، وهو على شكل مساجد تركيا، وكان في موضعه مدرسة بوعنان أو المدرسة العنانية، فهدمت لتسع المكان، وكان بناء هذا الجامع على نفقة منظمة سبل الخيرات في سنة 1070هـ/ 1660م[1].

يتميز الجامع الجديد بمنارته التي يبلغ علوها خمسة وعشرون مترا، ونصبت الساعة التي كانت في قصر الإمارة(قصر الجنينة) في أعلى المنارة وتحت المئذنة، ومنبر هذا المسجد من الرخام الأبيض المنقوش، وهو من الصنع الرفيع، ومزخرف ملون بألوان مختلفة، أما محرابه فمزين بالخزف البديع [2]، وتصميم المسجد عموما يبدو أنه مستوحى من الفن البيزنطي، وهناك نقش يذكر اسم الحاج الحبيب مدير الأشغال، وهو من أصل إسلامي، وربما كان تركيا[3].

يقع الجامع الجديد في مواجهة البحر حتى أن كل قادم للمدينة من الميناء يراه، فيؤخذ بشكله االجداب، وقبته العالية وبياضه الناصع، وكان الرياس(البحارة) يحيّونه عند الغدو للجهاد بالطلقات النارية تيمنا بالنصر، وكان له أيضا عدد ضخم من الموظفين، الذين يتوزعون على مختلف الاختصاصات، فقد كان هذا الجامع مقرا للمفتي الحنفي، الذي كان في مقام شيخ الإسلام في اسطنبول، وكانت للمفتي الحنفي اليد الطولى إذا ما حصل خلاف بينه وبين المفتي المالكي، ومن أشهر العائلات التي تولت الفتوى الحنفية عائلة ابن العنابي[4].

---

[1] نور الدين، **صفحات**، ص.161.

[2] نفسه، ص.163.

[3] أشرف صالح، **مرجع سابق**، ص.66.

[4] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص. 259.

ج- جامع سفير(صفر): يقع جامع صفر بن عبد الله عند التقاء شارع الإخوة باشارة وروان عبد الحميد، وبذلك فواجهته الرئيسية تطل على الشارع الأول، والواجهة الشمالية تطل على الشارع الثاني، والملاحظ أن المسجد كان في الأصل يقع خارج مدينة الجزائر[1].

وجامع سفير من المساجد العتيقة بمدينة الجزائر، أسسه القائد صفر بن عبد الله (خادم خيرالدين بربروس) من ماله الخاص، وكان من أعيان المدينة، وكانت له معرفة باللغة العربية، ودام بناؤه من شهر رجب سنة 940هـ إلى اليوم الثاني من ربيع الأول من سنة 941هـ، أي استغرق بناؤه تسعة أشهر، ويبدو أن سبب تسمية هذا الجامع بهذا الاسم فيه إشارة إلى دخول هذا القائد (صفر) إلى الإسلام في هذا الشهر، أي شهر صفر، ومن المعلوم أنهم يسمون الأولاد بالشهر الذي يولدون فيه كشعبان ورمضان والمولود وعاشورا[2].

وقد حبس خير الدين باشا مزرعة مساحتها نحو مائة هكتار ناحية سيدي يخلف بالقرب من سطاوالي غربي مدينة الجزائر، ليصرف دخلها على جامع صفر، وأوصى بأن هذا العقار لا تجرى عليه ضريبة، وكان ذلك سنة 942هـ/1535م، وأعيد بناء جامع سفير من طرف الداي حسين باشا سنة 1242هـ/(-18271826)[3].

د- جامع كتشاوة: هو مسجد حنفي بني في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر الهجري(17م)، وأعاد بناؤه الداي بابا حسن باشا، وزاد في توسيعه سنة

---

[1] بن بلة **« المنشآت الدينية...»**، ص.63.

[2] نور الدين، **صفحات**، ص ص.164-166.

[3] نفسه، ص.165.

1209هـ/1795م[1]، وكان مظهره آنذاك عبارة عن قبة واسعة، أما المئذنة التي لم يعد لها الآن أثر، فقد كانت من الطراز المغربي، أي على شكل مربع، وقد حفظت لنا الرسوم والنقوش ثراء الزخرفة ورحابة قاعة الصلاة بأعمدتها الرخامية العظيمة وأخشابها الرائعة النقش، ولكن للأسف دمّر وشوّه المسجد، وحول إلى كاتدرائية سنة 1260هـ/1845م[2].

2-أهم المساجد بالغرب الجزائري:

أ- الجامع الأعظم بمعسكر: يقع هذا الجامع وسط مدينة معسكر، وهو على بعد 300 مترا من السور الشرقي لها، ويعرف هذا الجامع أيضا باسم جامع عين البيضاء بسبب وجود عين كانت موجودة أسفل السور المذكور، وكان لونها يميل إلى الأبيض، ولم تقتصر هذه التسمية على الجامع فقط بالمنطقة، بل سمي الحي كله باسم هذه العين، كما يعرف هذا المسجد بجامع الباي محمد الكبير نسبة إلى بانيه، وعرف أيضا بجامع المبايعة نسبة إلى المبايعة الثانية لأهالي المنطقة للأمير عبد القادر فيه[3].

يرجع تأسيس بناء هذا الجامع إلى سنة 1195هـ/ 1780م من طرف الباي محمد الكبير من ماله الخاص، وعلى أرض اشتراها بأغلى ثمن، وصادفت بناءه مسغبة لم تمنع الباي من مواصلة البناء، حيث أعلن أن كل من لم يجد قوت يومه يتقدم للمشاركة في عملية البناء بأجرة معلومة، يستعين بها لتوفير قوته وقوت عياله، أو يكري دابة يملكها وكل ما يتعلق بالبناء، وبالتالي كان بناء الجامع الأعظم فرصة

---

[1] نور الدين، **صفحات**، ص.164.

[2] أشرف صالح، **مرجع سابق**، ص.66.

[3] بن بلة **« المنشآت الدينية...»**، ص ص.83-84.

لذوي الحاجة، لمواجهة المسغبة المعاشة وقتئذ، علما أن عصر الباي قد اتسم بافتقاد الأشغال المأجورة وتفشي البطالة[1].

أسند بناء المسجد الأعظم إلى المهندس ذي الأصل التركي: أحمد بن محمد بن الحاج الحسين التلمساني، وقد نقشت كتابة بارزة بخط كوفي خارج المحراب من الجهة اليمنى جاء فيها ما يلي: ‹‹ أما بعد، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان محمد باي بن عثمان ››، أما من الجهة اليسرى، كتب بحروف صغيرة: ‹‹انتهى بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد الحاج الحسين بن صارمشيق التلمساني– رحمه الله – في أول يوم من ذي القعدة عام خمسة وتسعين ومائة وألف››[2].

وقد ألحق الباي محمد الكبير بالجامع الأعظم ستة عشر حوضا للوضوء، تجلب لها المياه عبر السواقي والقنوات من أراضي تتوفر على ينابيع كثيرة، كان الباي قد اشتراها من أجلها لتسخيرها في خدمة أهل المدينة، وبجواره بنى بيتا خصصها لمكتبة الجامع، بها باب تؤدي إلى بيت الصلاة، كما بنى بقربه حماما، وصفه ابن سحنون بالرائق بناء وشكلا، واشترى له حدائق ودورا وحوانيت، وبنى له فرنا وفندقا جديدا بالسوق القديم، وكل هذه المرافق المذكورة بدءا من المكتبة إلى الفندق حبسها على الجامع الأعظم(الكبير)، لتسد عائداتها جميع نفقات وظائفه ولوازمه[3].

على ضوء ما تقدم، يبدو أن الباي محمد الكبير، كان يخطط للجامع الأعظم، ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم في المنطقة، ينافس به جامع القرويين بفاس، ولكن تطور الزمن ولم يتحقق له ذلك، فقد نقلت العاصمة إلى وهران بعد فتحها الثاني، و وقعت ثورة الطريقة الدرقاوية[4].

ب–جامع الباشا بوهران: أسس جامع الباشا بوهران سنة 1792م من طرف حاكم الجزائر حسن باشا، وهذا حسب ما تشير إليه كتابة أثرية محفوظة بمتحف وهران [1]،

---

[1] مريوش، **مرجع سابق**، ص ص. 26–27.

[2] نفسه، ص.27.

[3] نفسه، ص.27.

[4] نفسه، ص.28.

ويوجد هذا المسجد قرب القصر الأحمر، الذي أسس في العصر الوسيط من طرف تجار البندقية، والمسجد اليوم محاط بأحياء سكنية، وتتميز الأرض التي بني عليها بالانحدار الشديد، بحيث يتجه هذا الانحدار من الجنوب إلى الشمال، وموقعه في السفح الشرقي لجبل سيدي هيدور، والحافة الشرقية لوادي الرحى، الذي يقسم وهران إلى قسمين[2].

لم يحظ جامع الباشا كغيره من مساجد الجزائر خلال العهد العثماني، باهتمام كبير من طرف الكتاب، ما عدا بعض الإشارات القليلة، جاء فيها وصف بسيط له، ويتميز هذا الجامع بمنارة مرتفعة، وهي مثمنة الطراز على غرار مآذن ذلك العصر، واجهاتها مغطاة ببلاطات خزفية وتنتهي بشرفة يقف فوقها المؤذن ليرفع الآذان، وللجامع أيضا مدخل يتميز بزخارف كتابية بالخط الكوفي والزخارف النباتية، وبعد احتلاله من طرف القوات الفرنسية، أعيد للعبادة في ماي 1833م بعد عملية ترميمه[3].

3-أهم المساجد بالشرق الجزائري:

عرفت مدينة قسنطينة بكثرة مساجدها في العهد العثماني، فمن أشهر المساجد نذكر: الجامع الكبير وجامع سوق الغزل، وجامع سيدي الكتاني وجامع القصبة وجامع سيدي علي بن خلوف، وقد احتوى بعضها على زخارف ونقوش جميلة، كما كان بعضها مبنيا بالرخام والزليج النادر المستورد من تونس أو من إيطاليا، ومن البايات الذين ساهموا في بناء المساجد هناك االباي حسين بوكمية، الذي بنى جامع سوق الغزل سنة 1143هـ، وهو جامع للمذهب الحنفي، جميل الشكل والهندسة، وقد صرفت عليه أموال غزيرة، أما الجامع الكبير، فقد بناه الباي حسن بوحنك سنة 1156هـ، وقد كان أيضا للصلاة والتسبيح والتعليم كما جاء في اللوحة الجميلة

---

[1] بن بلة **« المنشآت الدينية...»**، ص.87.

[2] نفسه، ص.87.

[3] نفسه، ص.89.

المنقوشة عند بابه، أما منارته فيصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين مترا، وكانت له أوقاف هامة[1].

ومن آثار صالح باي جامع سيدي الكتاني، الذي شيده سنة 1189هـ[2]، ويقع هذا الجامع في نهاية شارع كرامان بساحة سوق العصر، ويعتبر من أهم المعالم التي يشار إليها بمدينة قسنطينة، إذ يتكون الرواق به من أعمدة رخامية جميلة، ومنبره الرائع به أجزاء مختلفة الألوان من الرخام، وكذلك السلم الرخامي، الذي يتكون من جزأين أسود وأبيض[3]، كما أسس صالح باي مسجدا آخر بمدينة عنابة، يسمى بجامع الباي نسبة إليه، وذلك سنة 1792م[4].

وعرفت مدينة قسنطينة أيضا جامع سيدي لخضر، الذي بناه حسن بوحنك سنة 1156هـ/1743م، ويقع هذا الجامع بالناحية الشرقية أسفل القصبة، وعلى ممر مدخل باب القنطرة في الحي الذي سمي باسم سيدي لخضر بالقرب من رحبة الصوف، وسمي هذا الجامع بسيدي لخضر نسبة إلى الولي الصالح سيدي لخضر، الذي كان قيما على الجامع طوال فترة حياته، ودفن خلف الجامع الذي سمي باسمه[5].

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.261.

[2] نفسه، ص.261.

[3] بن بلة **« المنشآت الدينية...»**، ص ص. 80-82.

[4] نفسه، ص.85.

[5] نفسه، ص ص.78-80.